آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السابعة : العددان الخامس والعشرون والسادس والعشرون - ربيع الأول ١٤٢٠ هـ - تموز (يوليو) ١٩٩٩م

■ كتاب الحلم والعلم لآدم بن أبي إياس العسقلاني - ٢٢٠هـ

* KITAB AL HILM WAL 'ILM, by Adam bin Abi Iyas Al 'Askalani - 220 A.H. - copy from the 7th century after Hijra.

أثر الفتنة في الحركة العلمية في قرطبة

(٣٩٩ - ٤٢٢ هـ / = ١٠٠٩ - ١٠٣١ م)

الدكتور/ عبد الوهاب خليل الدباغ
معهد إعداد المعلمين - نينوى

أدى الصراع على السلطة في قرطبة بين عامي (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ = ١٠٠٩ - ١٠٣١م) بين الجند المغاربة وأهالي قرطبة إلى تدهور الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في حياة العلماء والأدباء، فقتل بعضهم في الأحداث، وآثر بعضهم الهجرة حيث الأمان والسكينة. بينما بقي آخرون في ظلّ الخوف والترقب، ولم يسلم من هذه الأحداث شيء، حتى مكتباتهم وحلقات دروسهم تعرضت هي الأخرى للنهب والتخريب.

بدأت الحرب الأهلية (الفتنة) في قرطبة إثر انهيار الدولة العامرية عام (٣٩٩هـ = ١٠٠٩م)، وانتهت بإلغاء الخلافة الأموية سنة (٤٢٢هـ = ١٠٣١م)[١]. وكان الصراع على السلطة في هذه المدة بين القبائل المغاربية (البربر) بزعامة الخليفة المستعين بالله، ومن بعده خلفاء بني حمود من جهة، والخلفاء الأمويين بدءًا بالمهدي ومن جاء بعده من جهةٍ أخرى، له أثره البالغ في حياة المجتمع الأندلسي عامة، وفي حياة العلماء والأدباء خاصة، نظرًا لما لهؤلاء من إحساسٍ مرهف بالواقع ووعي عميق بمجريات الأحداث.

لقد توقف كبير مؤرخي الأندلس ابن حيّان عن عمله في كتابه التاريخ عند بداية اشتعال الفتنة؛ إذ يقول: «ففاضت أهوالها تعاظمًا، أدلهني عن تقييدها، ووهمني ألاّ مخلص منها، فعطلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها»[٢]. ومع ذلك لم يتعرض هذا المؤرخ ولا أبوه الذي كان كاتبًا للمنصور بن أبي عامر من جرّاء الحرب الأهلية بسوء؛ إذ كانت السلامة من أحداثها أمرًا من الندرة والغرابة بحيث يستحق التسجيل[٣]، فالفقيه بن حزم يذكر فيما نقله عنه بن بشكوال[٤]، في ترجمة أستاذه حمام بن أحمد الأطروش (ت ٤٢١هـ = ١٠٣٠م) قوله: «إنه كان شديد الانقباض، ولا أدري أحدًا سلم من الفتنة سلامته مع طول مدته فيها».

لذلك آثر الكثير من العلماء والأدباء الرحيل والابتعاد عن ميدان الصراع طلبًا للأمان، وتفرغًا للبحث العلمي[٥]، أمثال خلف بن مروان الصخري (ت ٤٠١هـ = ١٠١٠م)[٦]، وأبي الحسن طاهر (ت ٤٠٣هـ = ١٠١٣م)، الذي خرج عن قرطبة يوم دخلها

الجند المغاربة[٧]، وأبي عبد الملك راشد بن إبراهيم (ت ٤٠٤هـ = ١٠١٤م)، الذي خرج فارًّا من قرطبة نحو الجنوب، فذبح في الطريق[٨]، وأحمد بن محمد القيسي (ت ٤٠٧هـ = ١٠١٦م) رحل إلى مصر، وتصدر للإقراء فيها[٩]، ومحمد بن معافى بن صميل (ت ٤١٠هـ = ١٠١٩م) رحل إلى طليطلة، ثم انتقل إلى سرقسطة، وبقي فيها حتى وفاته[١٠]، وأبي بكر أحمد ابن مطرف (ت ٤١٠هـ = ١٠١٩م)، خرج إلى الثغر، ثم انتقل إلى جزيرة ميورقة، وبقي فيها حتى وفاته[١١]، وأبي القاسم عبد الرحمن بن محمد الأزدي المصري (ت ٤١٠هـ = ١٠١٩م)، الذي ترك قرطبة عائدًا إلى بلاده[١٢]، وأحمد بن قاسم بن عيسى الإقليشي (ت ٤١٠هـ = ١٠١٩)، انتقل إلى طليطلة، وأقرأ فيها حتى وفاته[١٣]، والكاتب أبي أمية بن هشام، كان حيًّا عام (٤١٤هـ = ١٠٢٣م)، من وجوه قرطبة، خرج عنها واستوطن تطيلة[١٤]، وأبي عبدالله محمد بن يحيى بن أحمد بن الحذاء (ت ٤١٦هـ = ١٠٢٦م)، خرج إلى الثغر الأعلى، واستقضى بتطيلة[١٥].

وأما أبو عبدالله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار (ت ٤١٩هـ = ١٠٢٩م)، فقد فرّ عن قرطبة عند تغلّب الجند المغاربة عليها لهدرهم دمه؛ إذ كان أحد المتشددين عليهم والنهي عنهم، فاضطرب بجهات المغرب والمشرق، وألقى عصاه ببلنسية، فأقام بها حتى وفاته[١٦]. وابن سعيد خلف مولى الحاجب جعفر، المعروف بالجعفري (ت ٤٢٥هـ = ١٠٣٤م)، خرج عن قرطبة واستقر في طرطوشة حتى وفاته[١٧]. وسعيد بن إدريس بن يحيى السلمي (ت ٤٢٩هـ = ١٠٣٨م)، رحل إلى إشبيلية واستقر بها حتى وفاته[١٨].

والأديب أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني (ت ٤٣١هـ = ١٠٤١م)، الذي خرج من قرطبة أيام الخليفة يحيى الحمودي، والتحق بغرناطة، معسكر المغاربة[١٩]، وحماد بن عمار (ت ٤٣١هـ = ١٠٤١م) التحق بطليطلة، وتوفي بها[٢٠]. وأبو الوليد محمد بن عبدالله البكري (ت ٤٣٦هـ = ١٠٤٤م) من أهل مرسية، سكن قرطبة، إلاّ أنه خرج منها في أثناء الفتنة، وعاد إلى بلده[٢١]، وأبو الوليد هشام بن الغالب الغافقي (ت ٤٣٨هـ = ١٠٤٦م)، خرج إلى إشبيلية، وبقي فيها حتى وفاته[٢٢]، وأبو الحسن طاهر، خرج من قرطبة عام (٤٠٣هـ = ١٠٠٢م)، واتجه نحو مكة، ولم يزل بها حتى سنة (٤٥٠هـ = ١٠٥٨م)[٢٣]. وأبو عمر أحمد بن محمد التميمي (٣٨٠ - ٤٦٧هـ = ٩٩٠ - ١٠٧٤م)، رحل إلى سرقسطة ثم المرية[٢٤]. والمطرف بن عمر الهشيمي، من ولد هشيم بن عبد الملك بن المغيرة بن الوليد بن معاوية «من متميزي المروانيين وشعرائهم... طلبه المهدي فَفَرَّ إلى شرق الأندلس»[٢٥].

كما رحل عن قرطبة عددٌ من أولي العلوم الصرفة، كعلم العدد والطب والهندسة، أمثال الطبيب أبي عبدالله ابن الحسين المعروف بابن الكتاني، الذي رحل إلى سرقسطة، وتوفي فيها سنة (٤٢٠هـ = ١٠٢٩م)[٢٦]، وأبي القاسم أحمد بن عبدالله بن الصفار (ت ٤٢٦هـ = ١٠٣٤م) الذي كان متحققًا بعلم العدد والهندسة والنجوم، رحل مع ابنه إلى دانية، وتوفي هناك في أيام حاكمها مجاهد العامري[٢٧]، وأحمد بن يحيى بن سميق (ت٤٥٠هـ = ١٠٥٨م). وكان قد «نظر في الطب، وطالع منه كثيرًا، وعني به، والتحق بطليطلة في الفتنة»[٢٨].

وهناك من العلماء والأدباء من لقي حتفه مناصرًا لهذا الجانب أو ذاك في الوقائع التي دارت بين الجند المغاربة البربر وأهالي قرطبة كأبي عمر أحمد بن بريل المقري[٢٩]، وأبي ربيع بن الغماز سليمان بن هشام[٣٠]، وأبي محمد عبدالله بن أحمد قند اللغوي[٣١]، ومحمد بن عيسى المعروف بابن البريلي[٣٢]، وأبي عبدالله محمد بن عيسى المريني[٣٣]، وأبي عبدالله محمد بن يحيى المعروف بأبي الفصال[٣٤]، وهؤلاء جميعًا قتلوا في واقعة (عقبة البقر) في صدر شوال (٤٠٠هـ = ١٠٠٩م).

وفي أثناء ولاية واضح الفتى الصقلبي على طليطلة قتل اثنان من مشاهير أهل العلم والأدب على يد جماعةٍ من أهل طليطلة عام (٤٠١هـ = ١٠١٠م) هما، أحمد بن محمد بن وسيم[٣٥]، ومحمد بن تمام ابن عبدالله[٣٦].

وهناك من لقي حتفه في (وقعة قنتيش) (عام ٤٠٠هـ = ١٠٠٩م)، أمثال محمد بن عبد السلام النحوي المعروف بالتدميري[٣٧]، وأبي عثمان ابن القزاز[٣٨]، والشاعر الأديب أبي الحسن علي بن وداعة السلمي البلكوني[٣٩]. وكثير من الفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين والمؤدبين[٤٠]، وكذلك بعض الفنانين أمثال المغني زربوط الطمبوري، والملهي قنبوط «ونمطهما» حتى قال أحد الظرفاء «من كل طبقة أخذت وقعة قنتيش»[٤١].

أما من قتل من أهل المعرفة في شوال من سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م) عند اجتياح الجند المغاربة لقرطبة، فقد ذكر بن بشكوال منهم أبا عمر أحمد بن محمد بن مسعود[٤٢]، وأبا القاسم خلف بن سلمة بن سليمان[٤٣]، وعبدالله بن محمد بن يوسف بن الفرضي، صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس[٤٤]، وأبا عبدالله محمد بن سعيد بن السري الأموي[٤٥]، وأبا عبدالله محمد بن قاسم بن محمد الأموي الجالطي[٤٦]، وسعيد بن منذر ابن سعيد[٤٧].

وقد تعرض عددٌ من العلماء والأدباء في عصر الفتنة إلى السجن والنفي، ومن أبرزهم، أبو محمد علي بن حزم[٤٨]، الذي تحدث عن محنته قائلاً: «شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت الفتنة، وألقت باعها، وعمت الناس، وخصتنا، إلى أن توفي أبي الوزيرُ رحمه الله في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة اثنتين وأربعمائة». ويبدو أن تصرف الخليفة هشام المؤيد مع آل حزم بهذا الشكل يعود إلى كونهم من رجال دولة المنصور بن أبي عامر، الذي كان قد حجر الخليفة في صغره وأفقده السلطة[٤٩].

وقد غادر ابن حزم قرطبة في أول المحرم سنة (٤٠٤ هـ = ١٠١٣م) بعد تغلب الجند المغاربة على المدينة، وتنقل بين مدن شرق الأندلس، وفي مدينة المرية اتهمه حاكمها خيران العامري الصقلبي بالدعوة للخلافة الأموية، فسجنه عدة أشهر[٥٠]، ثم تعرّض للسجن مرةً أخرى في عهد الخليفة المستكفي؛ لأنه كان وزيرًا لخصمه المستظهر بالله[٥١]، وكان ابن عمه الأديب أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم وزيرًا للمستظهر، قد لحق بالثغر خائفًا من الخليفة عندما «عتب عليه في بعض الأمر»[٥٢].

كما لحقت بالعالم اللغوي إبراهيم بن محمد بن زكريا المعروف بابن الإفليلي (ت ٤٤١هـ = ١٠٤٩م) تهمة في دينه أيام الخليفة هشام المعتد (٤١٨ - ٤٢٢هـ = ١٠٢٧ - ١٠٣١م)، فطلبه وسجنه بالمطبق[٥٣].

وسُعي بالأديب أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد (ت ٤٢٦هـ = ١٠٣٤م) لدى الخليفة الحمودي يحيى المتعلي، فنكبه واعتقله[٥٤]. وتعرّض للسجن أيضًا أبو عمر بن هارون المعروف بالرمادي (ت ٤٠٣هـ = ١٠١١م)، وله في السجن أبياتٌ من الشعر، منها قوله:

لقد راعني سجني فشط ولو دنا
من السجن لم يسهل علي دخوله[٥٥]

وتعرض إلى تعسف السلطة وغضبها علماء وأدباء آخرون نذكر منهم، أبا محمد عبدالله بن سعيد ابن خيرون، قرطبي، مات في سجن المطبق منكوبًا في ربيع الآخر من سنة (٤٠٣هـ = ١٠١١م)، وسلم إلى أهله بقيوده[٥٦]، وأبا عمر أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري من أهل طليطلة، ومن أكرم علماء وقته، ولي أحكام طليطلة مع يعيش بن محمد، ثم

استثقله ودبر قتله، وأشيع في الناس أنه مرض ومات، وقيل: إنه مات مسمومًا بسجن شنترين سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م)[٥٧]، ويحيى بن وافد اللخمي، الذي حكم عليه الخليفة سليمان المستعين بالإعدام لولا شفاعة أقرانه الفقهاء وأهل المعرفة، ومات في سجنه سنة (٤٠٤هـ = ١٠١٣م)[٥٨]، وأبا العباس أحمد بن ذكوان، الذي نفي مع أسرته إلى عدوة المغرب سنة (٤٠١هـ = ١٠١٠م) وذلك بقرارٍ من الخليفة هشام المؤيد بتهمة ميله إلى الجند المغاربة(٥٩)، والحسين بن حيّ بن عبد الملك التجيبي القرطبي الذي توفي سنة (٤٠١هـ = ١٠١٠م) «بعد اختفاء ومحنة عظيمة نالته»[٦٠].

والملاحظ أن الشعراء في هذه المرحلة من تاريخ الأندلس كانوا بحالة سيئة للغاية، ولا أبلغ من وصف ابن حيان[٦١] لحالهم أيام الخليفة سليمان المستعين؛ إذ يقول:

«واغتنمته شعراء العامرية والدولة الأموية، وقد نسجت على أفواههم ومحاربهم العناكب أيام الحرب والفتنة، واشتدت فاقتهم، وصمتت طباعهم، وكانوا كالبزاة الفذّة الجياع، انقضت لفرط الضرورة على الجرادة، فلم يبل صداهم، ولا سدّ خلتهم؛ لاشتغاله بشأنه واشتداد حاجة سلطانهم»، فأصبحوا يوالون كل من تولى السلطة، يمجدون اليوم هذا، ثم يمجدون غدا قاهره، وغدوا جوابين على أبواب أولئك الأمراء، أمثال منذر التجيبي حاكم سرقسطة، وخيران العامري حاكم المرية، ومظفر ومبارك حاكما بلنسية، وأصبحت مدائحهم جزافًا من القول في سبيل القوت، ولم تعد هناك انتصارات المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر عبد الملك؛ ليتغنوا بها، فانصرفوا إلى ذكر المكائد الصغيرة والخلافات الداخلية[٦٢].

فهذا الشاعر أبو عمر القسطلي (ت ٤٢١هـ = ١٠٣٠م) «كان لسان الجزيرة شاعرًا كالمتنبي بصقع الشام... من شعراء بن أبي عامر.. أخرجته المحن، وسالت به تلك الفتنة الكائنة في صدر المائة الخامسة من الهجرة... ذكره بن حيان معجبًا من أخباره، فقال...: «كان ممن طوحت به تلك الفتنة الشنعاء، واضطرته إلى النجعة، فاستقرى ملوكها أجمعين ما بين الجزيرة الخضراء، فسرقسطة من الثغر الأعلى، يهز كلا بمديحه، ويستعينهم على نكبته، وليس منهم من يصغي إليه...»[٦٣].

وللقسطلي قطعٌ أدبية، كتب بعضها إلى الخليفة سليمان المستعين، وبعضها إلى الخليفة علي بن حمود، يشكو فيها أحواله المتردية[٦٤]. وله في ذلك قصيدة يصف فيها ما حلّ به وبأهله وأطفاله، يمدح فيها خيران العامري[٦٥].

ولحق الفقر والحاجة في هذه الظروف شعراء آخرين أمثال الأديب أبي عمر يوسف بن هارون الكندي الرمادي (ت ٤٠٣هـ = ١٠١٢م)، الذي يقول عنه المقري[٦٦]: «أدرك الفتنة، فخاض لجتها، وأقام فرقًا من هيجانها... ولحقته فيها فاقة، نهكته، وبعدت عنه الإفاقة حتى أهلكته...»، والأديب أبي العلاء صاعد بن حسن البغدادي، الذي يقول عنه ابن بسام[٦٧]: إنه خاطب هشام بن الحكم المؤيد؛ ليراعي حالته، إلاّ أن هذا لم يصغ إليه «حتى اختل وعجز عن ستر ولده وأهله»، ثم حاول أن يمدح الخليفة سليمان المستعين «فما أنجح معه ولا أفلح.. ثم عجل الانكفاء إلى صقلية، ومات بها رحمه الله»، والشاعر أبي عامر ابن الشهيد (ت ٤٢٦هـ = ١٠٣٤م) الذي شارف «الإملاق فمضى على هذا السبيل رحمه الله»[٦٨].

ولم تذكر المصادر إلاّ القليل من الأدباء، ممن تخلص من هذا الضيق، ووجد له مكانًا بديلاً، فسما به، كأبي عامر محمد بن سعيد التاكرني، الذي استقر ببلنسية في عهد أميريها الصقلبيين (مظفر ومبارك)، فانتظم في سلكهما، وشاركهما في مراتب ملكهما، وعندما تولى عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول حكم بلنسيه (٤١٧ – ٤٥٢هـ = ١٠٢٦ – ١٠٦٠م) قام

بخدمته، وكان أخصّ الناس به، وبتدبير أموره حتى وفاته[٦٩].

ويبدو أن من أهم العوامل التي أدت إلى تدهور أحوال الشعراء في هذا العصر انشغال الخلفاء بمشكلاتهم السياسية والعسكرية وفقر خزينتهم وقصر مدة حكمهم، الأمر الذي جعلهم يعرضون عن مدائح الشعراء وإكرامهم، وإلاّ فإن منهم من كان متذوقًا للشعر وينظمه، ولهم قصائد معروفة، أمثال الخليفة المستعين[٧٠]، والمستظهر[٧١]، والمرتضى[٧٢]. وكان الخليفة علي بن حمود على الرغم من عجمته يتذوق الشعر[٧٣].

وعلى النقيض من ذلك نجد خلفاء لا يستسيغون الشعر ولا يتذوقونه أمثال هشام المعتد الذي غدا عليه الملأ وهو بمجلسه حال وصوله إلى قرطبة قادمًا من الثغر الأعلى فأنشده الشعراء «فلم يهزه شيء من ذلك لنبوٍّ طبعه»[٧٤].

وقد أصابت أحداث العصر الوافدين إلى الأندلس من العلماء، فضاقت بهم السبل، فابتعدوا عن العاصمة قرطبة، وتنقلوا من مدينةٍ إلى أخرى طلبًا للأمان، فضلاً عن أن هؤلاء الوافدين لم ينالوا المكانة والرعاية التي كانوا ينعمون بها في عهد الاستقرار، وعلى سبيل المثال كان صاعد البغدادي (ت ٤١٠هـ = ١٠١٩م) ذا مكانة وشهرة في العهد العامري، وكان المنصور بن العامر قد أكرمه وزاد في الإحسان إليه[٧٥]، ولكن بسبب الأحوال المضطربة في الفتنة تردت مكانته، وساءت أموره، وانتهت به الحال إلى أن أغرم مائة مثقال، حتى اختل وعجز عن ستر ولده وأهله، فغادر الأندلس إلى صقلية. ولمّا تحسنت أحواله فيها عاد إلى بلاده إثر غلبة الخليفة المستعين على قرطبة عام (٤٠٣هـ = ١٠١١م). ولمّا مدح صاعد هذا الخليفة ولم يحصل منه على شيء، غادر البلاد ثانيًا إلى صقلية ومات بها سنة (٤١٠هـ = ١٠١٩م)[٧٦].

وكذلك كان حال الشاعر (علي بن زريق البغدادي)[٧٧]، الذي ترجح معظم المراجع[٧٨] وفادته إلى الأندلس عام (٤٢٠هـ = ١٠٢٩م): أي في عهد هشام المعتد، وهي المدة التي زاد فيها انحطاط الأدب والعلم، مما جعل الشاعر ابن زريق يصاب بالإحباط والكآبة، فانزوى في خان من خانات قرطبة، ومات فيه من الغمّ، وقد ترك وصفًا لحاله وشكوى زمانه وحنينه إلى بغداد، وفي قصيدته الوحيدة المشهورة التي تركها تحت وسادته وهو على فراش الموت يقول فيها:

استودع الله في بغداد لي قمرا
بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا
أم الليالي التي مضت ترجعه

ولم يقتصر تأثير الحرب الأهلية في قرطبة في أحوال العلماء والأدباء فحسب، بل شمل مكتباتهم وحلقات دروسهم، وكما هو معلومٌ فقد امتاز أهل المعرفة الأندلسيون بظاهرة حضارية جليلة، هي اقتناء الكتب والاعتناء بخزائنها[٧٩]، والشواهد على ذلك عديدة، منها مكتبة الخليفة الحكم المستنصر، التي بلغت حوالي أربعمائة ألف كتاب، فقد كان للمستنصر وراقون في البلاد، ينتخبون له غرائب التآليف، ورجال يوجههم إلى الآفاق، باحثين عن أحدث ما صدر من كتب[٨٠]. وهذه المكتبة الجليلة «ذهبت كتبها كل مذهب»[٨١] في الفتنة؛ إذ اضطر واضح الصقلبي حاجب الخليفة هشام المؤيد إلى بيع قسمٍ منها بأوكس الأثمان، وذلك حين عجزت الدولة عن إيجاد الأموال اللازمة لفك الحصار الذي فرضه الجند المغاربة على قرطبة، وجاءت الضربة الأخرى لهذه المكتبة حين دخول الجند المغاربة بقيادة الخليفة المستعين إلى العاصمة عام (٤٠٣هـ = ١٠١٢م)، إذ قضوا على ما تبقى منها[٨٢].

ويروي ابن بشكوال(٨٣) عن عبد الرحمن بن

فطيس (ت ٤٢٠هـ = ١٠٢٩م) أنه «جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحدٌ من أهل عصره في الأندلس»، وكان يتم ذلك بالشراء والنسخ، فمتى «علم بكتابٍ عند أحدٍ من الناس طلبه للابتياع منه، وبالغ في ثمنه، فإن قدر على ابتياعه وإلاّ انتسخه منه ورده عليه»، وكان قد استخدم لهذه الغاية ستة ورّاقين ينسخون له دائمًا، ورتّب لهم على ذلك راتبًا معلومًا. ويروي حفيد بن فطيس أنه سمع من عمه وغير واحدٍ من سلفه: «إن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتب جده هذا مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار».

وكان القاضي ابن الفرضي صاحب كتاب (تاريخ علماء الأندلس) «جماعًا للكتب، فجمع منها أكثر مما جمعه أحدٌ من عظماء البلد»[٨٤]. ويبدو أن مكتبته قد تعرضت للنهب بعد مقتله على أيدي الجند المغاربة، كما تعرضت مكتبات أخرى إلى المصير نفسه، يقول بن حزم[٨٥]: «وقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي لقرطبة»، وروى بن بشكوال[٨٦] عن عمر بن عبيدالله الزهراوي (ت٤٥٤هـ = ١٠٦٢م) أنه قال: «شددت في داري بالربض الغربي ثمانية أحمال من كتب لإخراجها إلى مكان غيره، ولم يتم لي العزم حتى انتهبها البربر».

وقد تعرضت خزانة الكتب العامرية «الحافلة»[٨٧] بالكتب للنهب والتلف، ويمكن القول إن ذلك يعود إلى أسباب، أهمها على ما يبدو الطمع في ثمنها، أو في علمها، أو انتقامًا من أصحابها. مثلما حصل لكتاب (الباهر) الذي ألفه عبد الرحمن بن محمد الرعيني (ت ٣٩٧هـ = ١٠٠٦م) للمنصور بن أبي عامر حين قلّده «نظم التاريخ في أيامه»[٨٨]، ويبدو التعمد واضحًا في إتلاف هذا الكتاب كونه وثّق أحداث الدولة العامرية البائدة. وكذلك الحال بالنسبة لكتاب (الجواس بن معطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء)، وهو من الكتب القيّمة، وقد انخرمت بعض أوراقه في النهب مطلع الفتنة، وضاعت ولم توجد بعد، وكان المنصور بن أبي عامر شغوفًا بهذا الكتاب «حتى رتّب له من يخرجه أمامه كل ليلة»[٨٩].

وقد تأثرت حلقات الدرس هي الأخرى من جرّاء الحرب الأهلية، ففي «وقعة قنتيش» (٤٠٠هـ = ١٠٠٩م) أصيب أكثر من ستين مؤدبًا؛ إذ «أعريت سقائفهم.. وتعطل صبيانهم»[٩٠]. وذهب في هذه الوقعة المشهورة «من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلقٌ كثير»[٩١]. وكذلك تعطلت دراسة علوم القرآن الكريم في مسجد قرطبة[٩٢]، الذي كان موضع اهتمام القرّاء، وذلك بسبب هجرة العلماء آنفة الذكر من قرطبة إلى المدن الأكثر أمنًا، ولا سيّما باتجاه شمال الأندلس وشرقها[٩٣]، مما ساعد على نشر علوم القرآن الكريم هناك، ولا سيّما في دويلة دانية في عهد مجاهد العامري، الذي شجع تلك العلوم بقوة[٩٤]، «فاجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة»[٩٥]. كما هاجرت «عقائل الكلام» إلى بلنسية في ظلّ عهد مبارك ومظفر[٩٦]. ونافست سرقسطة في ظلّ حاكمها منذر الأول التجيبي «الحضرة الكبرى قرطبة أيام الجماعة» في توافد العلماء والأدباء إليها[٩٧].

ومن جهةٍ أخرى كان لبيع مكتبات قرطبة أثره الإيجابي في تسهيل نشر العلم والأدب في مدن الأندلس المختلفة، حيث عثر طلاب العلم فيها على كتبٍ لم يكونوا يحصلون عليها، فكان ذلك من العوامل المهمة التي أدت إلى انتعاش الحركة العلمية في الأندلس[٩٨]. ●

●●●

الحواشي

١ - حول هذه المدة من تاريخ الأندلس ينظر: ثورة العامة في قرطبة أواخر عصر الخلافة، مجلة البحث العلمي ع ٣٦/ ٩٣، والأندلس بين عام (٣٩٩ - ٤٢٢هـ = ١٠٠٩ - ١٠٣١م). دراسة سياسية حضارية: ١ وما بعدها.

٢ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٥٧٦.

٣ - مقدمة كتاب «المقتبس من أنباء أهل الأندلس» لابن حيان: ٢٦.

٤ - الصلة: ق١/ ١٥٥.

٥ - كتاب الصلة لابن بشكوال:، ق١، ومجلة المؤرخ العربي ع ٢٩ س ١٥/ ١٥٠.

٦ - الصلة : ق٢/ ١٦٢ - ١٦٣.

٧ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

٨ - الصلة : ق١/١٨٦.

٩ - المصدر نفسه: ق١/٢٧.

١٠ - المصدر نفسه: ق٢/٥٠٣.

١١ - المصدر نفسه: ق١/٣٦.

١٢ - المصدر نفسه: ق٢/ ٣٥٣ - ٣٥٤.

١٣ - المصدر نفسه: ق١/٣١.

١٤ - الذخيرة: ق١/م١/١٨٣.

١٥ - الصلة: ق٢/ ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧.

١٦ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك: ٤/ ٧٢٤ - ٧٢٥. الصلة: ق٢/ ٥١٠ - ٥١١.

١٧ - الصلة: ق١/١٦٧، وانظر: فهرسة ابن خير: ٣٦٦-٣٦٧٨ - ٣٦٨.

١٨ - الصلة: ق١/٢٢٠.

١٩ - الذخيرة: ق٤/م١/١٢٥.

٢٠ - الصلة: ق١/١٥٦.

٢١ - المصدر نفسه: ق١/٥٢٧.

٢٢ - المصدر نفسه: ق١/٦٥٢.

٢٣ - نفح الطيب: ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

٢٤ - الصلة: ق١/ ٦٢ - ٦٣.

٢٥ - المغرب في حلى المغرب: ١/١٩٧.

٢٦ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٤٩١ - ٤٩٢، وطبقات الأطباء: ٨٢.

٢٧ - طبقات الأمم: ٧٠، والصلة: ق١/٤٢.

٢٨ - الصلة: ق١/ ٥٦ - ٥٧ - ٥٨.

٢٩ - المصدر نفسه: ق١/٢٠.

٣٠ - المصدر نفسه: ق١/ ١٩٤ - ١٩٥.

٣١ - المصدر نفسه: ق١/٢٥٠.

٣٢ - المصدر نفسه: ق٢/٤٨٨.

٣٣ - ترتيب المدارك: ٤/٦٨٨.

٣٤ - الصلة: ق٢/٤٨٩.

٣٥ - المصدر نفسه: ق٢/٢٥.

٣٦ - المصدر نفسه: ق٢/٤٨٩.

٣٧ - إنباه الرواة على أنباء النحاة: ٣/١٦٨.

٣٨ - الصلة: ق١/٢١٠، وانظر: إنباه الرواة: ٣/١٦٨.

٣٩ - المغرب في حلى المغرب: ١/٢٢٣.

٤٠ - الذخيرة: ق١/م١/٤٤. والمعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٨٩.

٤١ - الذخيرة: ق١/م١/٤٤.

٤٢ - الصلة: ق١/٢٧.

٤٣ - المصدر نفسه: ق١/١٦٣.

٤٤ - المصدر نفسه: ق١/ ٢١٥ - ٢٥٣. وانظر: الذخيرة: ق١/م٢/ ٦١٤ - ٦١٥. وجذوة المقتبس: ٢٥٤ - ٢٥٥.

٤٥ - الصلة: ق٢/ ٤٨٩ - ٤٩٠.

٤٦ - الصلة: ق٢/ ٤٩٠ - ٤٩١، وبغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس: ١/ ١٦٢ - ١٦٣.

٤٧ - الصلة: ق١/ ٢١٢ - ٢١٣. ورسالة طوق الحمامة: ١٥٧.

٤٨ - طوق الحمامة: ٢٥١ - ٢٥٢.

٤٩ - تاريخ الأدب العربي: ٤/٥٣٥.

٥٠ - طوق الحمامة: ٢٥٢ - ٢٦١.

٥١ - الذخيرة: ق١/م١/٤٣٦.

٥٢ - المصدر نفسه: ق١/م١/١٣٢.

٥٣ - المصدر نفسه: ق١/م١/ ٢٨١ - ٢٨٢. والمغرب في حلى المغرب: ٧٢. وتاريخ الأدب العربي: ٤/٤٧٩.

٥٤ - إعتاب الكتاب: ٢٠٣. وانظر: ابن شهيد الأندلسي: ٣٩ - ٤٠.

٥٥ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس: ٣١٨ - ٣١٩. والصلة: ق٢/٦٧٤.

٥٦ - الصلة: ق١/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

٥٧ - المصدر نفسه: ق١/٣٧.

٥٨ - المصدر نفسه: ق٢/ ٦٦٣ - ٦٦٤. وترتيب المدارك: ٤/ ٦٦٨ - ٦٦٩.

٥٩ - الصلة: ق١/٣٣. وانظر: ترتيب المدارك: ٤/ ٦٦٥- ٦٦٦.

٦٠ - الصلة: ق١/ ١٤٠ - ١٤١.

٦١ - أعمال الإعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: ١٢٢.

٦٢ - تاريخ الأدب الأندلسي: ١٣٨.

٦٣ - الذخيرة: ق١/م١/ ٥٩ - ٦٠ - ٦١؛ وانظر: أحمد بن محمد بن دراج القسطلي: ٦٣ - ٦٤.

٦٤ - الذخيرة: ق١/م١/ ٦٣ - ٦٤.

٦٥ - المصدر نفسه: ق٣/م١/١٠.

٦٦ - نفح الطيب: ٥/١٨١ ومطمح الأنفس: ٣١٢.

٦٧ - الذخيرة: ق٤/م١/ ٥٤ - ٥٥.

٦٨ - الذخيرة: ق١/م١/١٩٣.

٦٩ - إعتاب الكتاب: ٢٠١ - ٢٠٢.

٧٠ - جمهرة أنساب العرب: ١٠٢؛ وانظر: الذخيرة: ق١/م١/ ٤٦ - ٤٧.

٧١ – البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٣/ ١١٨ – ١١٩، وانظر: جذوة المقتبس: ٢١، والمعجب: ٩٢ – ٩٣، والحلة السيراء: ٢/ ٨ – ٩، ونفح الطيب: ١/٤١٢.

٧٢ – انظر له أبيات شعرية في نفح الطيب: ١/٤١٢.

٧٣ – نفح الطيب: ٢/٢٩.

٧٤ – الذخيرة: ق٣/م١/٥١٦.

٧٥ – الصلة: ق١/٢٣٧.

٧٦ – الذخيرة: ق٤/م١/ ٥٣ – ٥٤؛ وانظر: صاعد الأندلسي وأثره في الحياة الأدبية الأندلسية: ٢٨٩ – ٢٩٠.

٧٧ – حول ترجمة هذا الشاعر: انظر: طبقات الشافعية الكبرى: ١/ ٣٠٨ – ٣١٢.

٧٨ – انظر: أدباء بغداديون في الأندلس: ٢٤، وما بعدها. وانظر: تاريخ الأدب العربي: ٢/٦٦؛ وشعراء الواحدة: ٩٣ – ٩٤. وأصول عراقية في الأدب الأندلسي، مجلة آفاق عربية ع٢، س١٢/ ٧٤ – ٧٥.

٧٩ – نفح الطيب: ٢/ ١١ – ١٢.

٨٠ – المصدر نفسه: ١/ ٣٦٨ – ٣٦٩؛ وانظر: تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري: ١٦٤ – ١٦٥.

٨١ – صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: ١/٥٣٧؛ وانظر: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف: ٥٦.

٨٢ – تاريخ ابن خلدون: ٤/١٤٦، ونفح الطيب: ١/ ٣٦٩ – ٣٧٠، وطبقات الأمم: ٦٧.

٨٣ – الصلة: ق١/٣١٠؛ وتاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة: ١٣٨.

٨٤ – الصلة: ق١/٢٥٣.

٨٥ – طوق الحمامة: ٢٦٠ – ٢٦١.

٨٦ – الصلة: ق٢/ ٣٩٩ – ٤٠١.

٨٧ – الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: ٦/٣٦٥.

٨٨ – الصلة: ق١/٣٠٧.

٨٩ – جذوة المقتبس: ٢٤٠، والمعجب: ٧٨.

٩٠ – الذخيرة: ق١/م١/ ٤٣ – ٤٤، وانظر: تاريخ الأدب العربي (عصر سيادة قرطبة): ١٣٧.

٩١ – المعجب: ٨٩.

٩٢ – لم تنشأ عند الأندلسيين مدارس خاصة، بل ظل المسجد المكان المخصص للدراسة؛ انظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة): ٣٨.

٩٣ – دور العلماء السياسي والاجتماعي في الأندلس في عهدي الطوائف والمرابطين: ٤١.

٩٤ – مقدمة ابن خلدون: ٤٣٧، وانظر: تاريخ الأدب العربي: ٤/٤٩٩.

٩٥ – الذخيرة: ق٣/م١/٢٣.

٩٦ – المصدر نفسه: ق٣/م١/١٤.

٩٧ – المصدر نفسه: ق١/م١/١٨١.

٩٨ – قارن: طبقات الأمم: ٦٧، وتاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: ١٣٧ – ١٣٨.

المصادر والمراجع

ابن الأبار : محمد بن عبدالله.

- إعتاب الكتاب، تح. صالح الأشتر، مجمع اللغة العربية، ١٩٦١م.
- الحلة السيراء، تح. حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

الإشبيلي : مجد بن خير.

- فهرسة ما رواه عن شيوخه، تح. فرنسشكه قدارة، ط٢، دار الآفاق العربية، بيروت، ١٩٧٩م.

ابن أبي أصيبعة : موفق الدين.

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

بدر : أحمد.

- تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري، عصر الخلافة، مطابع ألف باء، دمشق، ١٩٧٤.

بروكلمان : كارل.

- تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤.

ابن بسام : علي بن بسام.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح. إحسان عباس، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

ابن بشكوال : خلف.

- الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.

جمال الدين : محسن.

- أدباء بغداديون في الأندلس، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٣م.
- صاعد الأندلسي وأثره في الحياة الأدبية الأندلسية، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع٦، مطبعة العاني، ١٩٦٣م.

ابن حزم : محمد.

- جمهرة أنساب العرب، تح. محمد عبد السلام هارون، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.
- طوق الحمامة، ضمن رسائل ابن حزم، تح. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠ – ١٩٨١م.

حسين : غانم حازم.

- دور العلماء السياسي والاجتماعي في الأندلس في عهدي الطوائف والمرابطين، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، الموصل، ١٩٩٥م.

الحميدي : محمد.

- جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.

ابن خاقان : الفتح.

- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تح.

محمد علي شوابكة، دار عمار - مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.

خضر : حازم عبد الله.

- ابن شهيد الأندلسي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٤م.

ابن الخطيب : لسان الدين.

- إعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تاريخ إسبانيا الإسلامية، تح. ليفي بروفنسال، ط٢، دار الكشوف، بيروت، ١٩٥٦م.

ابن خلدون :

- المقدمة، ط٥، دار الرائد العربي، ١٩٨٢م.

الدباغ : عبد الوهاب خليل.

- الأندلس بين عامي ٣٩٩ - ٤٢٢، دراسة سياسية حضارية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، ١٩٩٦م.

الربيعي : أحمد حاجم.

- أصول عراقية في الأدب الأندلسي، مجلة آفاق عربية، ع٢ س ١٢، بغداد، ١٩٨٧م.

السبكي : عبد الوهاب بن علي.

- طبقات الشافعية الكبرى، تح. محمد محمود الطناحي وزميله، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م.

سعيد : علي بن موسى.

المغرب في حلى المغرب، تح. شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف، ١٩٧٨م.

صاعد : صاعد بن أحمد.

- طبقات الأطباء، تح. لويس شيخو، المكتبة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م.

الضبي : أحمد بن يحيى.

- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تح. إبراهيم الأبياري، دار الكتب المصرية اللبنانية، بيروت، ١٩٨٩م.

الطاهري : أحمد.

- ثورة العامة في قرطبة أواخر عصر الخلافة، مجلة البحث العلمي، ع ٣٦، س ١٩٨٦م، جامعة محمد الخامس - الرباط.

ابن عذاري : أحمد بن محمد.

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م.

عياض : عياض بن موسى.

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح. أحمد بكر محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

فروخ : عمر.

- تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١.

القفطي : علي بن يوسف.

- إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م.

القلقشندي :

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

الكنعاني : نعمان ماهر.

- شعراء الواحدة، ط٢، مكتبة النقاء، بغداد، ١٩٥٨م.

المراكشي : عبد الواحد.

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح. محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٣م.

المراكشي : محمد بن محمد.

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م.

مطلوب : ناطق صالح.

- كتاب الصلة، دراسته ومنهجيته وقيمته العلمية، مجلة المؤرخ العربي، ع ٢٩ س ١٥، الرباط، ١٩٨٩م.

المقري : أحمد بن محمد.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦م.

مكي : محمود علي.

- المقتبس من أنباء أهل الأندلس لابن حيّان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١م.